Employment of popular proverbs in Andalusian poetry In the fifth century AH

Dr. Salman Hattab [*]
Dr . Rodan Mari [**]
Ghousen Kababah [***]

(Received 6 / 8 / 2019. Accepted 26 / 9 / 2019)

□ ABSTRACT □

The aim of the research was to find some Andalusian poems in the fifth century AH, in an attempt to uncover the effect of proverbs. The proverbs, as a component of culture, were present in Andalusian poetry and were a rich source of literary experience for the Andalusian poet. The human experience, which is a key to the completion of self-experience, he borrowed from the proverbs and represented in the construction of the text with the intention and awareness in advance in the retrieval of this cultural literary stock, which led to the emergence of his poems in a true social, and linked to the spirit of society, See the aesthetic dimension through the technical value and meaning who give the connotation and communication with the heritage in the composition of the optimal method.

Keywords: Folk proverbs, heritage, Andalusian poetry .

[*] **Assistant Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**
[**] **Assistant Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**
[***] **Postgraduate student, , Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

توظيف الأمثال الشعبية في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري

الدكتور سلمان حطاب *
الدكتور رودان مرعي **
غصن كبابة ***

(تاريخ الإيداع 6 / 8 / 2019. قبل للنشر في 26 / 9 / 2019)

□ ملخّص □

يهدف البحث إلى الوقوف على بعض الأشعار الأندلسية في القرن الخامس الهجري، في محاولة للكشف عن أثر الأمثال فيها، فقد حضرت الأمثال_ كونها إحدى مكونات الثقافة _ حضوراً لا فتاً في الشعر الأندلسي، وكانت مصدراً غنيّاً من مصادر التجربة الأدبية لدى الشاعر الأندلسي منحته قدرة هائلة على فهم التجربة الإنسانية التي تعدُّ ركيزة أساسية لإنجاز التجربة الذاتية عنده، فاستقى من الأمثال وتمثّل بها في بناء نصّه بقصدٍ ووعي مسبق في استرجاع هذا المخزون الأدبي الثقافي، الأمر الذي أدّى إلى أن تظهر أشعاره بصورة اجتماعية صادقة، وأن ترتبط بروح المجتمع، كما أنّ الأمثال منحت أشعاره البعد الجمالي من خلال القيمة الفنية والمعنى الذين منحا الدلالة والتواصل مع التراث في تكوين الأسلوب الأمثل.

الكلمات المفتاحية: الأمثال الشعبية، التراث، الشعر الأندلسي

* أستاذ مساعد– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين–اللاذقية– سورية
** مدرّس_ قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين–اللاذقية– سورية
*** طالبة دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين–اللاذقية– سورية

مقدمة:

الأمثال تقرير لخبرات عامّة، تمثّل خلاصة أفكار المجموع، وهي أرقى نتاج عقلي تمّ نقله، ولأنّ الشاعر فنّان وسيلته التلاعب بالكلمات، استورد الأمثال لينتج نصاً مضيئاً مشرقاً، وهو اختيار قصدي واعٍ.

وأمّا عن تعامل الشعراء الأندلسيين– على وجه الخصوص– مع هذا الموروث الشعبي، فقد نظروا إليه على أنّه مادة استيحاء أو استلهام، وعايشوه وانصهروا فيه بأشعارهم، وربطوه بقضاياهم وتجاربهم، حتى غدا ملمحاً بارزاً من الملامح الفنيّة للقصيدة الأندلسيّة كما أشار غير دارس.

لقد شكّلت الأمثال رافداً أساسياً من روافد ثقافة الشاعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري–الذي شهد نهضة ثقافية– أخذ الشاعر يستلهمها ويفيد منها بفضل جمعها بين الإيجاز وتكثيف التجربة الإنسانية وكان حضورها شاهداً حيّاً على عمق صلتهم بالتراث ومعايشتهم القوية له.

قرأتُ بعض القصائد الشعرية في هذا القرن(القرن الخامس الهجري)، وقد جذبتني هذه الظاهرة فعقدتُ العزم على دراسة جانب من جوانبها؛ فلمّا كانت عناصر التراث ومعطياته لها القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لا تنفد، فإنّ الشاعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري قد توسّل بالأمثال لإيصال الأبعاد النفسية والشعورية بأكثر الوسائل فعالية وقدرة على التأثير شعوراً منه بأهميتها في توصيل الأفكار، وقد أظهرها في رداء جديد بما أفضى عليها من فنّه وإبداعه.

أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهميّة البحث من كونه يدرس ظاهرة يكاد يندر الدرس فيها في هذا القرن، وهي ظاهرة توظيف الأمثال في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري، فهو يهدف إلى الكشف عن مدى إفادة الشعراء الأندلسيين في القرن الخامس الهجري من الأمثال، وتأكيد أهميّتها ودورها في تحقيق جمالية خاصة للنص الشعري، ويهدف البحث إلى دراسة هذه الظاهرة عند شعراء عدّة، وإلى توضيح أبعاد هذا الاستحضار الذي لم يكن استحضاراً اعتباطيّاً، ولا لمجرّد الحشو، مشكّلاً بذلك التكوين الثقافي له، ومضيفاً على نصوصه الشعرية ثراء، وقدرة على التواصل مع القيم الكبرى في تراثنا العربي.

منهجية البحث:

تقوم هذه الدراسة على منهج الاستقراء للنصوص الشعرية، واستحضار الاقتباس من موضعه، ومن ثمّ تحليل تلك المواطن، وبيان دورها في تأدية المعنى الذي أراد الشاعر التعبير عنه.

تمهيد:

تعدّ الأمثال من أغنى المصادر بالتجارب الإنسانيّة والخبرة والحكمة، ومكوناً أصيلاً من مكونات الهوية الخاصة بالشعوب والمجتمعات، وقد لقي المثل من الاهتمام درجة مهمة، وقد حفظت لنا الكتب والمدونات العربية مجموعات كبيرة من الأمثال، التي وجد فيها الشاعر العربي مصدراً متجدّداً، ورافداً خصباً لنصوصه.

وللمثل تعريفات كثيرة نلحظ بينها بعض الاختلافات التي تركز على فردية المثل أو جماعيته، أو تركّز على كون المثل تعليميّاً أو غير ذلك.

ومن هذه التعريفات: (الأمثال هي فنّ بياني يُقرّب المراد إلى العقول، ويُثبت المعاني في النفوس، ويرفع الغشاوة عن الحقائق، ويطرح ما يفعلها من ظنون وأوهام. ولطالما مثّلت الأمثال أخلاق الأمم وعقلياتها وتقاليدها وعاداتها، فضلاً عن تصويرها المجتمع وحياته وشعوره أتمّ تصوير. ورأى بعضهم أنّ الأمثال:" إحدى خبرات الحياة التي تحدث مراراً في أجيال متكررة، ممثلة لكل الحالات الأخرى المماثلة)[1].

ورأى آخرون أنّها:" عبرة كثيرة الذيول والتداول ... تقويم بتكثيف ملاحظات عامة، غالباً ما تكون مجازية، حكمة تناقلتها الأجيال للدلالة على استمرارية وقوة الماضي في الحاضر"[2].

والأمثال تمتلك قيمة كبيرة، ومدلولاً واسعاً، لشيوعها بين الناس واتّخاذها صياغة لفظيّة محدّدة، وتركيزها على التهذيب والتعليم، وحملها كثيراً من المعاني، واستثارتها كثيراً من الايحاءات، وتجسيدها كثيراً من التجارب والخبرات الإنسانية العامّة، ولقد شغف العرب بهذا اللون من القول، فشاع في كلامهم، وكثر في تراثهم، فهي بالنسبة إليهم: (لم تكن نتيجة تفكير فلسفي بعيد، وإنّما هي نظرات وخبرات صادرة عن طبيعة حياتهم ومثلهم، ونظرتهم إلى الحياة والموت، ومصير الإنسان، والخير والشر، فهي تصوير صادق لفطرتهم السليمة، ونفسيتهم البعيدة عن التعقيد والغموض)[3].

وفوق هذا وذاك فقد نهضت الأمثال بمهمّة التعبير عن العقل، إذ راح العربي يتأمل تجاربه وتجارب الآخرين في الحياة، وموقفه ومواقف غيره من الوجود، عبر الصمود من أعماق النفس إلى الخارج، فكانت الأمثال وسيلة إلى ذلك كلّه، وكانت بحق حكمة العرب المستخلصة من تجارب النابهين في الحياة، فقد صدرت عن آراء سديدة وعقول سليمة وذوات ناضجة، اعتمدت التّروّي وملاحظة ما يجري في الحياة بدقة، فأفسحت المجال أمام أصحابها للإفضاء بالأمثال خلاصة لتلك التجارب.

فالأمثال كانت للعرب كالشعر، وسيلة من وسائل حفظ الأخبار وحوادث التاريخ ومواقف الفرسان وحكمة الشيوخ من خلال الحوادث المرتبطة بها. وقد لاقت الأمثال صدىً واسعاً ورواجاً كبيراً لدى الأدباء والشعراء، فأحاطوها بعظيم اهتمامهم وانكبوا عليها يضمنونها نصوصهم الإبداعية لما تحويه من ألفاظ فصيحة، وخصائص لغوية وبيانية رفيعة، ولما تنطوي عليه من رمزية وتكثيف وإيحاء.

وقد ذكرها ابن عبد ربه في عقده واصفاً إياها بأنّها:" وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحَلْي المعاني، والتي تخيّرتها العرب، وقدّمتها العجم، ونُطِقَ بها كل زمان وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يَسِرْ شيء مسيرها، ولا عمّ عُمومها، حتى قيل: أسْيَرُ من مثل"[4].

والأمثال وثيقة حيّة وملازمة لمجريات الحياة في المجتمع وما يتضمنه من عادات وتقاليد وشعور نفسي وديني، وتكمن أهميتها في ديمومتها واختيار الناس لها وجريانها على ألسنتهم في كل زمان ومكان، و(لسنا نبالغ أن كل مثل

---

[1] – زلهايم، رودلف، الأمثال العربية القديمة، ترجمة: رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة بيروت، ط3، ص 27.

[2] – علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط1، 1985، ص 202.

[3] – الجبوري، د. يحيى، الجاهلية (مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي). مطبعة المعارف بغداد، 1968، ص 102.

[4] – ابن عبد ربه الأندلسي أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق: د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، ط1، 1983، ص3.

يصلح أن يكون موضوعاً لعمل أدبي كبير، إذا استطاع الكاتب أن يتخذ من المثل بداية لعمله، فيعيش تجربة المثل، ويعبّر عنها تعبيراً تحليلياً دقيقاً)[1].

وظاهرة توظيف الأمثال في النَّصوص الأدبية سواء كانت شعراً أم نثراً شائعة معروفة، فقد عقد ابن رشيق القيرواني باباً في كتابة (العمدة) أسماه (باب المثل السائر) ذكر فيه أنّ" المثل السائر في كلام العرب كثير نظماً و نثراً"[2].

الأمثال في الشعر الأندلسي:

تعدّ الأمثال بمثابة تخطيط بياني لفن القول الموجز الذي يهدف إلى سرعة التذكير، وعمق التفكير، دون زلزلة أو خلخلة أو اضطراب. وقد أصبحت الأمثال وسيلة من وسائل القياس بين المعاني، ومصدراً من مصادر الربط بين الماضي والحاضر، تصل بين الأشباه و النّظائر في مختلف الأزمنة، ولهذا يلجأ إليها الأدباء والشعراء فيستمدّون من أضوائها، وينسجون على منوالها، ويزيّنون بها آدابهم وأشعارهم.

والأمثال المنقولة عن العرب لون فريد من ألوان الأدب عرفته العربيّة مُذْ كانت، وألفَهُ بنوها مُذ دخلوا أبواب الحياة، والدارس لتلك الأمثال يحسّ أنّها صورة شاعرة رسمت معالم واضحة لكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية الموروثة[3].

وقد اتكأ شعراء الأندلس في قصائدهم على الأمثال والأقوال السائرة لإيصال تجاربهم الشخصية، أو تمثيل بعض الأحوال بأمثال مشابهة لها في الأحداث، فعكفوا على توظيف هذه الأمثال، واستثمار معطياتها الدلالية والنفسية، وكذلك التاريخية والأسطورية في أشعارهم، فهي تشكّل جزءاً من موروث العرب الذي يجب على الشاعر مراجعته والإلمام به، ليكون عوناً له على نظم الشعر وسبكه. ولهذا برعوا فيها، وأجادوا إرسالها، وأتقنوا صياغتها.

كما أخذ الشاعر الأندلسي يستوحي الأمثال العربية القديمة، ويربطها بالنَّصّ ويُحكم لحمتها بهدف تعضيد الفكرة ومؤازرتها، وسنعرض بعض الأشعار التي وظّفت فيها الأمثال إمّا بأخذ المثل كما ورد في المصادر التي عنيت بجمع الأمثال أو بتغيير بنية المثل دون تغيير في مدلوله، ومن هؤلاء (ابن زيدون) الذي رأى في هذه النوع من القول أنجح مطلباً وأقرب مذهباً، فأقبل عليه يستثمر ماله من دلالاتٍ متنوّعةٍ، ليس في أشعاره فحسب، بل في أدبه بشكل عام فمن ذلك قوله يمدح أبي الحزم ابن جهور – من الخفيف–[4]:

أيّها ذا الوزيرُ! ها أنا أشْكُو، و العَصَا بَدْءُ قَرْعِـها للحَليمِ

مشيراً بذلك إلى المثل القائل: (إنّ العَصا قُرِعَتْ لِذِي الحِلْمِ)، وذو الحلم هو:

[1] – إبراهيم، د. نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، (د. ت)، ص144.

[2] – القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دار الجيل، 1981، ج1، ص 280.

[3] – خفاجي، محمد عبد المنعم، دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه. دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط1، 1967، ص 119.

[4] – ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله، ديوان ابن زيدون، شرح د. يوسف فرحات، الناشر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1415هـ، 1994م، ص 281.

" عامر بن الظرب العدواني، وكان من حكماء العرب، ولا تعدل بفهمه فهماً، ولا بحكمه حكماً، فلما طعن في السن، أنكر من عقله شيئاً، فقال لبنيه: إنّه قد كبرت سني، وعرض لي سهو، فإذا رأيتموني خرجتُ من كلامي، وأخذت في غيره، فاقرعوا لي المِجَنَّ بالعصا"[1].

وقد ساقه ابن زيدون بعد أن غيّر في بنيته اللغوية، وأبقى علي بنيته الدلالية، علّه يستجرّ عطف أبي الحزم فيحظى بعفوه، فهو قد ضرع إليه بالشكوى لينبهه إلى ما وقع عليه من ظلم، آملاً أن يكون هذا المثل عوناً له. فينتبه أبو الحزم، ويصفح عنه، وينتشله من غياهب السجن.

ويجعل ابن زيدون من المثل سنداً له في إثبات فكرته، يقول– من الطويل–[2]:

حِـذَارَكَ أنْ تـغْتَـرَّ مِنْـــهُ بـجانِبٍ، فَفي كـلِّ وَادٍ، مـن نوائِبِـهِ، سَـعْدُ

يشير بذلك إلى المثل القائل: (بِكلِّ وادٍ بَنُو سَعْدٍ)[3].

وقد قيل في تفسير هذا المثل: " إنّ الأضبط بن قريع بن عوف بن سعد بن زيد بن مناة رأى من أهله وقومه أموراً كرهها، ففارقهم، فرأى من غيرهم مثلما رأى منهم، فقال: (في كل أرض سعد بن زيد).

ويُضرب هذا المثل للدلالة على أن الشر منتشر في كل مكان، وقد وظفه ابن زيدون ليكون هدفه التحذير من نوائب الدهر، فيخاطب أبا الوليد قائلا: احترس أن تغترّ بجانب من جوانب الدهر، فكل جانب من جونبه مصدر للأذى والشرور، فقد أعطى استخدام المثل هنا ثراء للدلالة.

ويوظّفُ ابن زيدون المثل في معرض مدحه لأبي الوليد محمد بن جهور، يقول– من الرمل–[4]:

لا يَزَلْ مِنْ حَاسِديه مُكثِرٌ أو مُقِلٌّ: " سَبقَ السّيفُ العَذَلْ"

فهو يستحضر المثل القائل سبق السيف العذل موظفا إيّاه في سياق شعره، وأول من نطق به: ضبّة بن أدّ لمّا لامه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم"[5]. وبات يُضرب لما فات تداركه، ولا سبيل لتعديله وقد استغلّ ابن زيدون المثل ليصل من خلاله إلى الدلالة التي يسعى إلى البوح بها، فقد تمّ الكمال للأمير، ولن يضيره ذمُ حاقدٍ أو حسود، وللحساد والحاقدين أن يتحسّروا على ما ضيّعوا، وأن يعترفوا بالعجز عن اللحاق به.

ولخبرة الشعراء بدور الأمثال الريادي للمعنى وخبرتهم الطويلة بالأمثال التي عاشوا تجاربها وتعايشوا مع من عاش حوادثها دفعتهم إلى تخيّر بعض الأمثلة التي قيلت في حوادث واقعية حدثت، وقد برز أداء الشاعر واضحاً في تخيّره للأمثال العربية التي اقتربت في كثير من مناحيها من التجربة المقدّمة من لدن الشاعر، مما دفع الشعراء إلى إعادة

---

[1] – الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، المطبعة الخيرية، 1310هـ، ج1، ص 40.

[2] – ديوان ابن زيدون، ص 78.

[3] – الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج1، ص 111.

[4] – ديوان ابن زيدون، ص 231، (العذل: اللوم).

[5] – الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال: ج1، ص 341.

صياغة المثل وتلخيصه أو إيجاز ألفاظه على وفق ما يتناسب والمعنى العام والوزن الشعري، وقد يعمد الشاعر إلى إسقاط المثل بتعابيره الكاملة، يقول ابن زيدون – من الرمل: [1]

فَوَعَى الحِكْمَةَ عنْ قائِلِهم " إلْزَمْ الصّحّةَ يَلْزَمْكَ العَمَلْ"

لقد استلهم الشاعر المثل القائل: (الزمِ الصحة يلزمك العمل) ، معبراً عن فهمه وإدراكه له، وعمله به، معتمداً على الإشاعات والإلماحات التي تصدر عنه، هادفاً من وراء توظيفه إلى إعلان رغبته في أن يظلَّ تحت كنف الأمير، ويحظى بجزيل عطائه، وكرمه، فَمَنْ يُراعي الصواب ويلتزمه، يجد أحسن تقدير من الحكام وتتفتح أمامه أبواب الأعمال، هكذا قال المثل، وبصورته المنظومة المرسلة، وظّفه الشاعر دون تحوير أو تحريف.

وتعمل الأمثال التي استقاها الشاعر الأندلسي ووظّفها في أدائه الشعري على توضيح وتبيين الصور وكشفها من خلال المشابهة بين موقف المثل وحادثته التي قيل فيها وموقف الشاعر الآني– موضوعه الذي استلهم المثل فيه– ويؤدّي الجانب الحسّي المادي دوره في أداء الشاعر الأندلسي الذي لا يمكن لذاكرته أن تقيم علاقتها الإبداعيّة في أداء المعاني خارج إطار الواقع، فلنسمع قول ابن زيدون في سياق مدحه لأبي الوليد محمد بن جهور، فيقول من الطويل[2]:

مَضَوا يسألونَ النّاسَ عمّا وراءهمْ فيُخبرُهُمْ، بالمُبكياتِ، عِصَامُ

فهو قد استلهم المثل القائل (ما وراءك يا عصام؟)[3] ، و "عصام" هذه هي " امرأة من كِنْدة، ذات عقلٍ ولسان وأدب وبيان، أرسلها الحارث بن عمرو ملك كندة، لتستطلع شأن ابنة عوف بن مُحَلِّم الشيباني، تمهيداً لخطبتها، بعد أن بلغه جمالها و كمالها وقوّة عقلها، فلما عادت إليه بادرها بقوله: ما وراءك يا عصام، فذهبت مثلاً وقد استثمر ابن زيدون هذا المثل في سياق الإشادة بقوة ابن جهور، وشجاعته في صدِّ الأعداء، مثلما تساءل الحارث بن عمرو عمّا ينتظره من أخبارٍ حملتها إليه عصام عن ابنة عوف، كذلك مضى الأعداء يتساءلون عمّا سيُلاقونه من حربهم مع أبي الوليد، فأنبأهم المُخْبر الصادق بما سوف يحلُّ بهم من أحداث جِسام.

لقد عمد ابن زيدون في البيت السابق إلى تحريف لفظ المثل ليُناسب الوزن الشعري، كذلك تلاعب ببنيته الدلالية، بهدف إيصال فكرته، وتحقيق متبناه، فالأنباء التي بلّغتها عصام للحارث كانت سارّة، تحمل البشرى، وتفيض بالسعادة والفرح، على حين أنّ الذّعر كان يُغلّف الأخبار التي ينتظرها الأعداء، واعداً إياهم بالرعب الذي سيدبّه في نفوسهم، وبالألم الذي سيعتصر قلوبهم.

[1] – **ديوان ابن زيدون، ص 232.**

[2] – **ديوان ابن زيدون، ص 289.**

[3] – **الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج2/ 216.**

وهؤلاء الأعداء قد أُكرهوا على القتال، وخاضوه مضطرين مُجبرين، ولولا ذلك ما وطئت أقدامهم ميادين الوغى، يقول ابن زيدون– من الطويل–[1]:

وما ضاقَ عنهم جانب العُذْرِ، إنّهم كَـمِثْلِ القَطَا، لوْ يُتركونَ لَنامُوا

ولم يكن الشاعر لينال المعنى المراد بيسرٍ لولا هذا المثل الذي ضمّنه وهو: (لو تُرِكَ القَطَا ليلاً لنَامَ)[2]، بمعنى أن يُحمل الإنسان على المكروه مضطراً، فكان المثل خير مسعف لابن زيدون في تقريب المعنى المقصود، وجعل السامع يفهم ما أراد منه.

وقد يأتي تضمين الأمثال العربية السائرة، في الشعر الأندلسي بقصد الاحتجاج في الكلام، وتقديم الدليل والبرهان، أو يكون جزءاً من الصورة الشعرية، فيعمل على إثرائها وتقويتها من ذلك قول ابن اللبانة– من الكامل–[3]:

وقف الفِراقُ أمامَ عيني غيْهبا فقعدتُ لا أدري لنفسيَ مذْهَبا

يا موقداً بجوانحي نارَ الأسى رفقاً فماءُ الدمعِ قد بلغَ الزُّبى

فقد ضمّن بيته(المثل القائل):" بلغ السيلُ الزُّبى"، ويُضرب لما جاوز الحدّ[4].

فهو يعتذر من صاحبته، ويحثّها على التّريّث والتمهّل فيما يتعلق بموضوع الرحيل، لأنّ دموعه قد فاضت وبلغت الحد، ووصل إلى درجة لا يقوى فيها على رؤيتها راحلة مودّعة.

وكذلك يضمّن ابن شهيد المثل السابق في قوله[5]:

إنّ الماء قد بـلـغ الزُّبى وأنْحتْ رزايا ما لهن عديد

ويسعى الشاعر الأندلسي إلى استحضار المثل في أدائه الشعري الذي رسم فيه معانيه المختلفة التي تناسبت والأغراض الشعريّة المختلفة، إذ تعانقت ألفاظ المثل مع ألفاظ الشعراء في أدائهم الشعري وامتزجت في صياغتها لتبيان المعاني

[1] – ديوان ابن زيدون، ص 289.

[2] – الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج2، ص 123.

[3] – الداني، ابن لبانة، ديوان ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق: د. محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2008 م ، ص 23.

[4] – الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج1، ص 56.

[5] – ابن شهيد، ديوان ابن شهيد، جمع و تحقيق: يعقوب زكي، راجعه: د. محمود علي مكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ص 189.

المرغوبة في القول. وكان من الطبيعي أن تدخل الأمثال في أداء الشعراء؛ لما لها من قدرة على تنويع المعاني وتعزيز ما يروم الشعراء إبلاغه إلى المتلقي، يقول ابن زيدون معتذراً من محبوبته ولّادة لآنه أُجبر على فراقها والابتعاد عنها– من المتقارب–[1]:

عليكَ السّلامُ سَلامُ الوَدَاعِ وداعِ هوىً ماتَ قبلَ الأجلْ

وما باختيارٍ تَسَلّيْتُ عنْكِ ولـكنني: مُكْــرهٌ لا بَـطَـلْ

فهو يوظّف المثل القائل: (مُكْرهٌ أخُوكَ لا بَطَلٌ) الذي يُضرب لمن يُحْمَل على ما ليس من شأنه على سبيل الاحتجاج والإقناع[2].

وهذه حال ابن زيدون، فقد أرغم على هجر محبوبته ونسيانها، فتظاهر بذلك مكرهاً. وقد رُزق التوفيق الشامل في استخدامه هذا المثل الذي سوّغ له ما أقدم عليه، وعبّر أصدق تعبير عما يعتمل في داخله من حرقةٍ وألمٍ ولوعةٍ.

ونتابع في استرفاد الشعراء الأندلسيون للأمثال، معبّرين عن ثقافتهم العربية الأصلية، ومعايشتهم للتراث العربي بصورة عميقة، يقول أبو إسحاق الإلبيري–من الوافر– [3]:

رجعت القهقرى وخبطت عشوا لَعَمْرُكَ لو وصَلْتَ لَما رَجَعتا !

فهو يستحضر في قوله المثل القائل: " أخْبَطُ من عَشْوَاء"[4] وهي الناقة التي لا تبصر بالليل فهي تطأ كل شيء.

ويُظهر ابن عمار براعته في استدعائه للمثل الذي يعزز معانيه في استعطافه المعتمد بن عباد، ويصف الواشين بقوله– من الطويل –[5]:

ولا تلتفتْ رأيَ الوُشاةِ وقَوْلَهُمْ فكلُّ إناءٍ بالّذي فيه يَرْشَحُ

فالشاعر يفصح عمّا تكنّه نفسه من خلجات نفسيّة مضطربة بين محاولة استعطاف المعتمد ورجاء العفو عنه، وبين عدم الإنصات للواشين مستدعياً مثلاً من واقع الحياة (كلّ إناءٍ يرشح بما فيه)[6] وهو مثل يضرب في سلوك الإنسان نتيجة لتربيته وأخلاقه التي بدورها تعكس أخلاقه صفاته، وهذا ما أراد الشاعر الوصول إليه من خلال هذا التضمين.

---

[1] – **ديوان ابن زيدون ورسائله، 189.**

[2] – **الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج2، ص 274.**

[3] – **الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، حققه وقدم له: د. محمد رضوان الدايه، دار الفكر المعاصر، لبنان، بيروت، ط1، 1976، ص 32.**

[4] – **الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج1، ص 271.**

[5] – **خالص، د. صلاح، محمد بن عمار الأندلسي، دراسة أدبية تاريخية، مطبعة الهدى، بغداد، د.ط، 1957م، 320.**

[6] – **الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج2/ 108.**

فالنَّصّ: ليس مجموعة من الملفوظات النحوية أو اللانحوية، إنّه كل ما ينصاع للقراءة عبر خاصية الجمع بين مختلف طبقات الدلالية الحاضرة هنا داخل اللسان والعاملة على تحريك ذاكرته التاريخية"[1].

ولما كان للأمثال" ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، إصابة المعنى وحسن التشبيه"[2].

فإنّ ابن عمار قد استغلَّ هذه المعاني، بجعله عجز بيته حاملاً لهذه الدلالات، إذ قارب شيئاً معنوياً، يدرك بالعقول جسّدهُ مادياً في "إناء" وأوضح قصده مع تكثيف دلالاته، ومعلوم أن كلّ شيء يدل على طبيعته، ويشي بمعدنه، وعليه حقق هذا البيت درجة أكبر في الإقناع.

ولمّا كان للبيئة أن تنعكس في نص المثل، فمن الطبيعي أن تنعكس على أداء الشاعر الذي وظّف المثل فيه من خلال مفرداته، إذ يظهر نمط البيئة والحياة الاجتماعية والفكرية، و غير ذلك مما ينعكس من خلال لغة النَّصّ، فبدا لنا أداء الشاعر يتّسم بالواقعيّة لاستعانته في تشكيل قصائده وأشعاره بعناصر الواقع، فضلاً عن الأمثال التي حملت ثقل تصوير الواقع بصورة مكثفة، فالشاعر ابن الحداد استغلّ دلالة المثل (الحديث ذو شجون)[3] من خلال تضمينه في بيت التخلص إلى المدح الذي جاء مرتبطاً بالوحدة التكوينية لوصف قصر الممدوح مع ربط ذلك بالمقدمة الغزلية، ومعاني بيت التخلّص مزيج من الغزل والمدح، ويستلهم الشاعر فيه الأمثال، يقول _من الكامل_[4]،

أنتِ الهوى، لكنّ سُلْوانَ الهوى قصرُ ابنِ مَعْنٍ، والحديثُ شُجونُ

حيث يجد الشاعر في قصر ممدوحه المعتصم ما ينشغل به عن بعض ما يكابده من همّ الحب، وضرب مثلاً لذلك قول العرب "الحديث ذو شجون"، وحكاية هذا المثل مناسبة للتوسُّط بين الغزل والمدح، ومناسبة للخروج إلى غرض المدح، ويقتضي المعنى وصف حال الشاعر المعذَّب بحبِّه، ويستمدّ العاشق من التّسلِّي بوصف القصر ما يخفف بعض شجون ذلك الحبِّ، فهو يريد أن يقول: إنّ رؤية قصر المعتصم تُنسي ما أُلاقيه من هموم الحبِّ.

إنّ الشعراء الأندلسيين في استدعائهم للأمثال وكأنّهم يستعيدون وقائعها إلّا أنّهم يرسمونها على ما كان من أمر الواقع عندهم، ولمّا كانت قصة المثل واقعيّة أو تجربة معلومة فالنَّصّ الشعري في أداء الشاعر يعيد تنظيم وحدة المثل وألفاظه، ويحدّد مواقعها بما يتناسب والبيت الشعري ووزنه والمعنى العام للغرض الشعري، ففي قصيدة نظمها ابن الحداد في مدح المعتصم بن صمادح– من الكامل–[5]:

فَمَنِ ابنُ ذي يزنٍ؟ وما غمدانُه؟ النَّقلُ شَكٌّ والعيانُ يَقينُ

هو جنَّةُ الدُّنيا تبَوَّأ نُزلَها مَلِكٌ تَمَلَّكهُ التُّقى والدِّين

---

[1] – **كريسطيفا، جوليا، علم النَّصّ، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1991م، ص14.**

[2] – **السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الفكر، ج1، ص 486.**

[3]– **الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج1/ 206.**

[4] –**ابن الحداد ، ديوان ابن الحداد الأندلسي، جمعه وحققه: د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م، ص269.**
ابن معن: هو المعتصم بن صمادح، ويشير المثل "الحديث ذو شجون" أي ذو فنون وأغراض.

[5] – **ابن الحداد ، ديوان ابن الحداد الأندلسي، ص275، 276**

فكأنَّما الرَّحمنُ عجَّلها له لِيَرى بما قد كان ما سيكونُ

وكأنَّ بانيهِ سِنِمّارٌ، فما يعدوهُ تحسينٌ ولا تحْصينُ

وجزاؤهُ فيه نقيضُ جزائِهِ شتَّانَ ما الإحياءُ والتَّحيينُ

نلاحظ أنّ البنية الختامية للقصيدة مزيج من المدح للمعتصم وقصره معاً، تبدأ باستفهام مبني على قصد دلاليّ محوره الازدراء من كلّ عمران، سوى قصر الممدوح، وليست الغاية من حضور الأسلوب الاستفهامي في مستهل البنية الختاميّة إنكار الشّاعر لعجائب الحضارة العمرانية في الموروث التاريخي على وجه الحقيقة، كما يشفّ ظاهر النَّصَّ، إنّما الغاية منه التقليل من شأن كل حضارة سابقة لما يشاهده الشاعر من البدائع الحاضرة في قصر ممدوحه المعتصم. وتحفل هذه البنية أيضاً بحضور المثل (جَزَاءَ سِنِمَّار) الذي أسهم في تشكيل دلالة مختلفة، هي إبراز دقّة صنع القصر مع اختلاف الجزاء للصانع، فمهارة باني قصر المعتصم تُضارع مهارة سنمَّار، لكنّ الشاعر يحترز فيجعل الجزاء على البناء مختلفاً عمّن ضُرِب به المثل[1]، وهذا جانب يَظهر براعة ابن الحداد في الإفادة من قصة سنِمَّار مع الاحتراز مما قد يُفسِد المعنى المُراد.

كما أتّكأ الوشّاحون في القرن الخامس الهجري في موشحاتهم على الأمثال، لإيصال تجاربهم الشخصية، أو تمثيل بعض الأحوال بأمثال مشابهة لها في الأحداث، وكانت هذه الأمثال وقصصها من الروافد الثقافية للوشّاح الأندلسي، فاستقى منها وتمثّل لها في بناء نصّه التوشيحي بقصدٍ ووعي مسبق منه في استرجاع هذا المخزون الأدبي الثقافي، الأمر الذي أدّى إلى أن تظهر هذه الموشحات بصورة اجتماعية صادقة وأن ترتبط بروح المجتمع.

يقول ابن اللبانة في إحدى موشحاته مادحاً الرشيد أحد أبناء المعتمد بن عبّاد[2]:

ألا دعني من الصدِّ والهجْرِ

وخُذْ عنّي حديثين في الفَخْر

وقلْ إنّي أُحدِّث عن بَحْر

[1] – يُقال في المثل: (جزاء سِنِمَّار)، أي جزائي جزاء سِنِمَّار، وهو رجل روميّ بنى الخوَرنَق بِظهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس، فلمّا فَرَغ منه ألقاه من أعلاه فَخَرَّ ميتاً، وإنّما فعل ذلك لئلا يبني مثلهَ لغيرهِ، فضربت العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة. انظر الميداني: مجمع الأمثال، ج1/ 167 .

[2] – غازي، سيد، ديوان الموشحات الأندلسيّة، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، 1979م، مج1، ص209.

يُظهر ابن اللبّانة براعته في استدعائه للمثل الذي يعزّز معانيه في مدحه للرشيد، ففي قوله توظيف للمثل:" حدّثْ عن البحر ولا حرج"[1]، ويضرب هذا المثل عند الحديث عن إنسان كريم حوى محاسن عدّة، فيُشبّه في البحر لما فيه من الغرائب والعجائب.

وقد ذكر ابن الأثير أنّ العرب (لم تضع الأمثال إلّا لأسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمرٍ من الأمور عندهم كالعلامة التي يُعرف بها الشيء...)[2] ، فضلاً عن ربط معنى القصيدة بدلالة المثل، فلنسمع ابن اللبّانة في موشحة أخرى[3]:

آنّ الطلوعُ فَلُحْ يا بدْرُ فالـجوُّ أرْبَـدْ

وَعُدْ بشارقةٍ يـا فَجْرُ فـالعَوْدُ أحْمَدْ

والعَود أحْمد مثلٌ أصله:" العَوْد أحْمَدُ، والمرءُ يرشدُ، والوِردُ يُحْمَدُ"[4].

ويقال إنّ أوّل من قال المثل: خِدَاش بن حابس التميمي، ويُقال أيضاً إنّه مالك بن نويرة حين قال:

جَزَيْنا بني شيبان أمسِ بِقَرضِهم وعُدْنا بِمثْلِ البَدْء والعَود أحْمَدُ

فيتمثّل ابن اللبانة بالمثل ويورده بصيغته الأصلية، فهو يُودّعُ البَدْرَ ويُرَحّبُ بالشروق، والفجر الذي كان عَوده أحمد.

ويقول الكميت في موشّحة له يستعطف فتاة ويستميلها لعلّها تَرِقّ له وترضى عنه[5]:

أشكو إليها جُفُونَهَا المَرْضَى

لعلّها أن تـرِقّ أو تَـرْضَى

فصِرتُ كـالمستجيرِ بالرَّمضا

[1] – تمثال الأمثال، محمد بن علي العبدري الشيبي، أبي المحاسن(ت 837 هـ)، تحقيق: د. أسعد ذبيان، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1402هـ، 1982 م، ص

[2] –ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص 54.

[3] – غازي، سيد، ديوان الموشحات الأندلسيّة، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، 1979م، ج1، ص232.

[4] – مجمع الأمثال، الميداني، ج1، ص 496.

[5] – غازي، سيد، ديوان الموشحات الأندلسيّة، ج1، ص66.

إنّ الكميت يصف حاله مع محبوبته كالمستجير بالرمضاء، وهو مثل معروف، والمثل هو (كالمُستغيثِ من الرّمْضَاءِ بالنَّار)[1]، وأصل المثل وأوّل من نطق به التكلام الضبعي وذلك أنّ كلیباً عندما طعنه جساس بن مرة استسقى عمرو بن الحارث ماءً فلم يسقه، وأجهز عليه، فقال التكلام الضبعي في ذلك_ من البسيط_

كالمستغيث بعمرو عند كربتهِ كالمُستَغيثِ من الرَّمْضَاء بالنارِ[2]

فهو يُضرب في الخلتين من الإساءة تجمعان على رجل.

ونلاحظ أن لغة الموشّح الذي وظّف فيه المثل قد بدت لغة قديمة أصلية ضاربة في عمق التاريخ، وذلك أنّ الوشّاح استخدم مفردات المثل وأدرجها في سياق تعبيره.

الخاتمة:

لقد كانت الأمثال مصدراً غنياً من مصادر التجربة الأدبية لدى شعراء الأندلس فمنحتهم قدرة هائلة على فهم التجربة الإنسانية التي تعدُّ ركيزة أساسية لإنجاز التجربة الذاتية عندهم، فاستقوا منها، وتمثّلوا بها في بناء نصوصهم العشرية، بقصدٍ مسبقٍ ووعي منهم في استرجاع هذا المخزون الأدبي الثقافي، الأمر الذي أدّى إلى أن تظهر قصائدهم بصورة اجتماعيّة صادقة، وأن ترتبط بروح المجتمع، وأغلب الأمثال التي وظّفوها اتّكؤوا عليها دون الإشارة إلى أنّها أمثال، فقد التحمت بنسيج عباراتهم، حتى ليعجز من لم يكن ملمّاً بها عن معرفة ماهيتها، في حين كان يلمحون في قليلٍ منها إلى ذلك.

ولعلّ اشتراط عدم التغيير في صيغة المثل لا ينطبق تمام الانطباق في حالة توظيف شعراء الأندلس في القرن الخامس للمثل، فبعض الأمثال أوردوها بصيغتها ولفظها الأصلي وتصرّفوا في بعضها الآخر تصرّفاً بسيطاً، حيث غيّروا في مبناها، دون تغيير في مدلولها، لتؤدّي وظيفتها في النَّصّ، وتتناغم مع السياق الذي وردت فيه، والذي يقتضي توجيهها هذه الوجهة.

[1] – الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ج2، 95.

[2] – البكري، أبو عبيد بن محمد بن عبد العزيز، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: إحسان عباس، عبد المجيد عابدين، ط3، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ، 1983م، ص377.

المصادر والمراجع:

1-إبراهيم، د. نبيلة. أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط1، (د. ت)، دار نهضة مصر، القاهرة، عدد الصفحات (196).

2- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، (د.ط)، (د.ت)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، عدد الصفحات 320.

3- ابن الحدَّاد الأندلسيّ (أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ت 480هـ): ديوانه،. جمعه وحققه: د. يوسف علي طويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، عدد الصفحات376.

4-ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله. *ديوانه*. شرح: د. يوسف فرحات، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م، عدد الصفحات347.

5-ابن شهيد الأندلسي (أبو عامر أحمد بن عبد الملك، ت 426هـ). ديوانه. جمع و تحقيق: يعقوب زكي، راجعه: د. محمود علي مكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، عدد الصفحات 208.

6-ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد. *العقد الفريد*. تحقيق: د. عبد المجيد الترحيني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، عدد الصفحات3000.

7- الإلبيري، أبو إسحاق، *ديوانه*، حققه وقدم له د. محمد رضوان الدايه، دار الفكر المعاصر، لبنان، بيروت، ط1، 1976، عدد الصفحات 160.

8-الجبوري، د. يحيى. مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي. مطبعة المعارف، بغداد، 1968م، عدد الصفحات 159.

9- خالص، د. صلاح، محمد بن عمار الأندلسي، دراسة أدبية تاريخية، د.ط، مطبعة الهدى، بغداد، 1957م، عدد الصفحات 337.

9-خفاجي، محمد عبد المنعم. دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه. ط1، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1967، عدد الصفحات 238.

10- الدّاني، ابن اللبّانة. *ديوانه*، تحقيق: د. محمد مجيد السعيد، ط2، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، 2008م، عدد الصفحات 172.

11-زلهايم، رودلف. *الأمثال العربية القديمة*. ترجمة: رمضان عبد التواب، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م، عدد الصفحات 273.

12-السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*. ط1، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1998م، عدد الصفحات 651.

13-الشيبي، محمد بن علي العبدري، أبو المحاسن. *تمثال الأمثال*. تحقيق: د. أسعد ذبيان، ط1، دار المسيرة ، بيروت، 1982م، عدد الصفحات 788.

14-علوش، سعيد. *معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة*. ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985م، عدد الصفحات 305.

15-غازي، سيد. *ديوان الموشحات الأندلسية*. (د.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979م، عدد الصفحات 250.

16-القيرواني، ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دار الجيل، 1981م، عدد الصفحات 423.
17-كريسطيفا، جوليا. علم النَّصّ. ترجمة: فريد الزاهي، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 1991م، عدد الصفحات 94.
18-الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت518هـ). مجمع *الأمثال*. (د.ط)، مؤسسة الطبع والنشر، المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية المقدسة، 1322هـ، عدد الصفحات 520.